قسم العلوم الإنسانية جامعة محمد العربي بن مهيدي أم البواقي

السنة الأولى ماستر تاريخ مقيـــاس : التاريخ السياسي للأندلس

المحاضرة السادسة : مرحلة ملوك الطوائف الأولى: الأحداث والتحديات

مقدمة:

إذا كانت المحاضرات السابقة قد عالجت آليات 'بناء الدولة' وصعودها نحو ذروة المجد في عصر الإمارة والخلافة الأموية، فإن محاضرتنا اليوم تقف بنا أمام واحدة من أعقد الظواهر السياسية والسوسيولوجية في تاريخ الغرب الإسلامي' :**ظاهرة الانـهيار والتشظي.'**

تُشكل لحظة الإعلان الرسمي عن إلغاء الخلافة الأموية بقرطبة سنة 422هـ (1031م) زلزالاً جيوسياسياً لم يقتصر أثره على إسقاط أسرة حاكمة، بل أدى إلى **سقوط 'مفهوم الدولة المركزية '**ذاته. لقد دخلت الأندلس في نفق مظلم عُرف بـ 'الفتنة الكبرى'، تمخض عنه انشطار شبه الجزيرة الإيبيرية إلى فسيفساء سياسية معقدة ضمت أكثر من عشرين دويلة متناحرة، وهو ما اصطُلح على تسميته بـ **'عصر ملوك الطوائف.(The Taifa Period) '**

إن دراسة القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) في مستوى الماستر، تفرض علينا تجاوز النظرة السطحية التي تكتفي بحفظ أسماء هذه الدويلات المتكاثرة كالفطريات. بل يجب أن نحلل هذا العصر كـ **'مختبر لتشريح أزمات الدول'**؛ حيث تحولت العواصم الإقليمية إلى دول مستقلة، وتحول قادة المرتزقة (من البربر والصقالبة) وزعماء الأرستقراطية العربية إلى 'ملوك' يتوارثون السلطة دون أي غطاء شرعي أو دستوري.

والأخطر من ذلك، أن هذا التشظي أحدث انقلاباً جذرياً في 'ميزان القوى الاستراتيجي' في شبه الجزيرة الإيبيرية؛ فلأول مرة، تفقد الأندلس زمام المبادرة التاريخية، وتنتقل من موقع 'المركز' القوي الذي يفرض الجزية على الممالك المسيحية شمالاً، إلى موقع 'الأطراف' الضعيفة التي تدفع الخراج والجزية (الپارياسParias) لتلك الممالك، في عملية استنزاف ممنهجة مهدت لبداية حروب الاسترداد (Reconquista).

الإشكالية المركزية للمحاضرة :تأسيساً على هذا الطرح، تتبلور الإشكالية المركزية لمحاضرتنا في التساؤلات البنيوية الآتية:

كيف تبلورت الخارطة الجيوسياسية والعرقية لدويلات الطوائف عقب انهيار الخلافة؟ وكيف أدار هؤلاء "الملوك الجدد" أزمة (الشرعية السياسية) في ظل افتقارهم للإجماع أو النسب القرشي؟ وإلى أي حد ساهمت سياسة الاستقواء بالعدو الخارجي ونظام (الجزية العكسية/الپارياس) في تدمير المناعة الذاتية للأندلس وصولاً إلى صدمة سقوط طليطلة، وسط مفارقة تاريخية غريبة تمثلت في بلوغ الأندلس ذروة مجدها الثقافي والأدبي في قلب هذا الانهيار السياسي؟

ولتفكيك هذه الإشكالية، سنعالج الموضوع عبر أربعة محاور تحليلية متكاملة:

1. **المحور الأول :**تشريح الانقسام (الخارطة الجيوسياسية والعرقية للطوائف).
2. **المحور الثاني :**أزمة الشرعية والبحث عن الغطاء السياسي (وهم الخلافة).
3. **المحور الثالث :**الجيوبوليتيك الانتحاري (نظام الپارياس والاستنزاف الاقتصادي).
4. **المحور الرابع :**المفارقة الطائفية (الازدهار الثقافي في قلب الانهيار السياسي)".

المحور الأول: تشريح الانقسام (الخارطة الجيوسياسية والعرقية للطوائف)

لم يكن انهيار الخلافة الأموية بقرطبة عام 422هـ (1031م) انهياراً مفاجئاً، بل كان تتويجاً لـ "الفتنة الكبرى" التي استمرت عقدين من الزمن. وعندما انقشع غبار الفتنة، لم تعد الأندلس دولة واحدة، بل تحولت إلى ما يشبه "نظام أمراء الحرب" (Warlordism).

إن القراءة الفاحصة للخارطة الجيوسياسية الجديدة تكشف لنا أن الانقسام تم وفقاً لـ **"العصبيات العسكرية والعرقية "**التي شكلت جيش الدولة العامرية السابقة. فقد تقاسم قادة الجند، وزعماء القبائل، والقضاة المحليون كعكة الأندلس، وانقسموا ديموغرافياً وجغرافياً إلى ثلاث كتل كبرى:

.1طوائف البربر: (الهيمنة العسكرية في الوسط والجنوب)

شكل البربر (الذين جلبهم الحاجب المنصور كمرتزقة لضرب نفوذ العرب والصقالبة) القوة الضاربة في الجيش. وبانهيار السلطة المركزية، استولى قادتهم على كور (ولايات) الوسط والجنوب التي كانوا يتمركزون فيها. اتسم حكمهم بالصبغة العسكرية الخالصة، والافتقار إلى الحاضنة الشعبية الأندلسية التي كانت تنظر إليهم كـ "غزاة أجانب."

- **أبرز دويلاتهم * :بنو زيري (صنهاجة) :**أسسوا إمارة قوية في **غرناطة** بقيادة زاوي بن زيري.
  - **بنو ذي النون (هوارة) :**سيطروا على الثغر الأوسط وعاصمته **طليطلة** (أهم موقع استراتيجي في الأندلس).
  - **بنو الأفطس (مكناسة) :**استقلوا بـ **بطليوس** (Badajoz)في الغرب.
- **النص المصدر :**يوثق آخر ملوك بني زيري في غرناطة، **الأمير عبد الله بن بلقين**، في مذكراته السياسية (*التبيان*) لحظة استيلاء أجداده على غرناطة، كاشفاً بوضوح عقلية "الاستيلاء العسكري" وانعدام الثقة مع السكان الأصليين:

"ولما رأى زاوي بن زيري وقومه من صنهاجة تداعي أمر الأندلس... تحيزوا إلى كورة البيرة [غرناطة]، فحصنوها، واعتصموا بها من أهل الأندلس، لعلمهم بشنآنهم [كراهيتهم] لهم، فصاروا فيها ملوكاً طوائف" (1).

.2طوائف الصقالبة / الفتيان العامريين: (السيطرة على الثغور الشرقية والبحرية)

الصقالبة (العبيد الأوروبيون المخصيون والفتيان الذين تم ترقيتهم في الحرس الملكي والإدارة) وجدوا أنفسهم بعد سقوط الخلافة قوة منظمة ومسلحة. ونظراً لكراهية البربر والأندلسيين لهم، فرّوا إلى الساحل الشرقي (الليفانتي) حيث الموانئ والثروة التجارية، وأسسوا دويلاتهم هناك.

- **أبرز دويلاتهم :**استقلوا بمدن **ألمرية** (بقيادة خيران الصقلبي)، و**بلنسيةValencia/**، و**دانية**.

- **إمارة دانية والجزائر الشرقية :**تُعد أخطر دول الصقالبة، أسسها **مجاهد العامري**، الذي حوّل إمارته إلى قوة بحرية ضاربة، واحتل جزر البليار، بل وشن حملات بحرية لغزو جزيرة سردينيا الإيطالية (406هـ).

- **التحليل الجيوسياسي :**يرى المؤرخ **محمد عبد الله عنان** أن سيطرة الصقالبة على الشرق الأندلسي مكنتهم من احتكار **"**طرق التجارة المتوسطية**"**، مما جعل دويلاتهم (رغم صغر مساحتها) من أغنى دول الطوائف، وهو ما يُفسر بقاءهم رغم افتقارهم للعصبية القبلية (2).

.3طوائف الأندلسيين والعرب (البلديين): (قيادة الردة القومية في الحواضر الكبرى)

يمثل هذا التكتل "رد الفعل القومي" للسكان الأصليين (عرب ومولدين) ضد هيمنة المرتزقة البربر والصقالبة. غالباً ما تزعم هذه الدويلات قضاة المدن، أو العائلات الأرستقراطية العربية القديمة التي ادعت حماية العوام.

- **أبرز دويلاتهم:**

- **بنو عبّاد (في إشبيلية) :**أسسها القاضي أبو القاسم بن عباد. شكلت **أقوى دولة طوائف على الإطلاق**، وابتلعت معظم الدويلات الصغيرة في الجنوب الغربي.
- **بنو جَهْوَر (في قرطبة) :**أسسها الوزير أبو الحزم بن جهور. وتميزت بنظام سياسي فريد يشبه **"الجمهورية الشورية**(Oligarchy) **"**، حيث ألغى ابن جهور ألقاب الملك، وحكم من خلال مجلس أعيان لإنقاذ العاصمة المنهكة (3).
- **بنو هود (في سرقسطة) :**سيطروا على الثغر الأعلى المحاذي للمسيحيين في الشمال.

- **النص المصدر :**يصف المؤرخ **ابن عذاري المراكشي** في بيانه كيف تحولت العائلات العريقة والأعيان إلى ملوك مستغلين حالة الفراغ الأمني ورغبة العامة في التخلص من جند البربر:

"ولما انقضت أيام الجماعة، وتفرقت كلمة الأندلس... تغلب كل رئيس قوم على كورة، وانفرد بها، وامتنع فيها... وصاروا يُعرفون بملوك الطوائف؛ فاستبد بنو عباد بإشبيلية، وبنو جهور بقرطبة، وبنو هود بسرقسطة، وقاموا فيها مقام الخلفاء في الجباية وحماية الثغور" (4).

.4الخلاصة التحليلية :

النتيجة الكارثية لهذا التقسيم العرقي لم تكن في تفتت الجغرافيا فحسب، بل في **"تفتت العقيدة العسكرية** ."لقد تحولت الحدود الوهمية بين هذه الدويلات إلى جبهات قتال مشتعلة. المأساة الحقيقية –كما يوثقها **ابن حزم الأندلسي** بمرارة– هي أن هؤلاء الملوك استنفدوا مواردهم في قتال بعضهم البعض (عرب ضد بربر، وصقالبة ضد عرب)، تاركين الثغور الشمالية مكشوفة تماماً أمام زحف الممالك المسيحية الصاعدة (قشتالة وليون وأراغون)، مما أسس لأخطر ظاهرة في هذا العصر: الاستقواء بالعدو الخارجي. يقول **ابن حزم** واصفاً هذه الخيانة الجيوسياسية المتبادلة:

"والله لو علموا أن في عبادة الصُلبان بقاءً لملكهم لبادروا إليها... يدون [يدفعون الجزية] للنصارى، ويستنصرون بهم على إخوانهم من المسلمين" (5).

الهوامش :

(1)الأمير عبد الله بن بلقين، *مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة (المسمى كتاب التبيان)*، تحقيق إفاريست ليفي بروفنسال (القاهرة: دار المعارف، 1955)، 22-23. **(2)**محمد عبد الله عنان، *دولة الإسلام في الأندلس: عصر دول*

الطوائف منذ بدايته حتى الفتح المرابطي، ج 2 (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1997)، 145-148.

(3)ديفيد واسرستين(David Wasserstein) ، *انحطاط وسقوط ملوك الطوائف* (The Rise and Fall of the Party-Kings)، ترجمة عبد المجيد نعنعي (بيروت: دار النهضة العربية، 1990)، 85.

(4)أبو العباس أحمد بن عذاري المراكشي، *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*، تحقيق ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، ج 3 (بيروت: دار الثقافة، 1983)، 15-16.

(5)أبو محمد علي بن حزم الأندلسي، *رسائل ابن حزم الأندلسي*، تحقيق إحسان عباس، ج 3 (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1987)، 175.

المحور الثاني: أزمة الشرعية والبحث عن الغطاء السياسي (وهم الخلافة وتضخم الألقاب)

واجه أمراء الطوائف الجدد معضلة دستورية مستعصية بمجرد إعلان سقوط الخلافة الأموية بقرطبة عام 422هـ. فلم يكن أيٌّ منهم يمتلك "النسب القرشي" الذي يشترطه الفقه السني التقليدي للخلافة، ولم يأتوا عبر "إجماع أهل الحل والعقد"، بل فرضوا أنفسهم بقوة السيف. أدى هذا النقص البنيوي في "الشرعية السياسية (Political Legitimacy)" إلى أزمة حكم مزمنة، حاول ملوك الطوائف الالتفاف عليها عبر حيل سياسية وأيديولوجية يمكن حصرها في ظاهرتين رئيسيتين:

1. "وهم الخلافة" وأسطورة الخليفة المستتر:

أدرك أقوى ملوك الطوائف، وخاصة **بنو عبّاد** في إشبيلية (أبو القاسم بن عباد، ثم ابنه المعتضد)، أن الأندلسيين الذين تشبعوا طيلة ثلاثة قرون بمشروعية البيت الأموي لن

يدينوا بالولاء المطلق لقاضٍ أو قائد جند. ولتبرير توسعهم العسكري وابتلاعهم للدويلات الصغيرة المجاورة، لجأوا إلى "مسرحية سياسية" مدهشة.

- **إحياء الخليفة الميت :**ادعى أبو القاسم بن عباد أن الخليفة الأموي المخلوع **هشام المؤيد** لم يُقتل، بل هرب وهو حي يُرزق ومختبئ عنده في قصر إشبيلية. فجاء بشخص من العامة (حصيري اسمه خَلَف) يشبه الخليفة تماماً، وأخذ له البيعة، وأعلن نفسه "حاجباً" له يقاتل باسمه لاسترداد ملكه المغتصب.
- **التوظيف السياسي للوهم :**بهذه الحيلة، أضفى بنو عباد طابعاً مقدساً وشرعياً على حروبهم التوسعية؛ فمن يقاتلهم إنما يقاتل "الخليفة الشرعي."
- **النص المصدر :**يوثق المؤرخ **ابن عذاري المراكشي** هذه الحادثة كاشفاً بوضوح عن الغرض التوسعي منها، فيقول:

"ولما طمح القاضي [أبو القاسم بن عباد] إلى الاستطالة، وتوسيع المملكة... أظهر شخصاً ادعى أنه هشام المؤيد، وقال: هذا خليفتكم قد ظهر، فبايعوه... فبايعه الناس، واتخذ ابن عباد ذلك ذريعة للغلبة على جيرانه، فكان يغزوهم باسم الخليفة، ويقول: إنما أدعوكم إلى طاعة الإمام" (1).

.2تضخم الألقاب السلطانية:(Inflation of Caliphal Titles)

في الدويلات الأخرى التي لم تخترع "خليفة وهمياً"، لُوحظت ظاهرة نفسية وسياسية غريبة؛ وهي ظاهرة "التضخم الشكلي". فرغم أن دويلة أحدهم قد لا تتجاوز مساحة مدينة وقراها المجاورة، إلا أن حاكمها كان يتلقب بأضخم الألقاب التي كان يتلقب بها خلفاء بني العباس في أوج مجدهم ببغداد أو بنو أمية في قرطبة.

- **الألقاب الوهمية :**تسمى ابن عباد بـ (المعتضد) وابنه بـ (المعتمد)، وتسمى ابن ذي النون في طليطلة بـ (المأمون)، وتسمى ابن هود في سرقسطة بـ (المقتدر)، وابن صمادح في ألمرية بـ (المعتصم).

- **دلالة الظاهرة :**يرى علماء الاجتماع السياسي أن هذا "التعويض اللفظي" كان محاولة يائسة لسد النقص في "الهيبة الحقيقية."
- **النص المصدر (نقد معاصر لاذع) :**لم تمر هذه الظاهرة دون نقد من النخب الأندلسية المعاصرة. ويبقى أبرزها النقد الساخر والعميق الذي وجهه الفيلسوف والفقيه **ابن حزم الأندلسي**، والذي لخص مأساة هذا التضخم في بيتين خالدين من الشعر، يقول فيهما:

"ومِمّا يُزَهِّدُني في أَرضِ أَندَلُسٍ *** سَماعُ مُعتَصِمٍ فيها وَمُعتَضِدِ أَلقابُ مَملَكَةٍ في غَيرِ مَوضِعِها *** كَالهِرِّ يَحكي اِنتِفاخاً صَولَةَ الأَسَدِ" (2).

.3العجز عن كسب الحاضنة الشعبية (أزمة المكوس والفقهاء):

أدت أزمة الشرعية إلى محاولة ملوك الطوائف استمالة طبقة **الفقهاء** (وهم قادة الرأي العام). لكن هذه العلاقة سرعان ما انهارت بسبب العبء المالي.

- **المشكلة الاقتصادية :**لكي يحمي ملك الطائفة دويلته، كان بحاجة لجيش من المرتزقة، ولدفع أموال طائلة للممالك المسيحية (نظام الپارياس). ولأن الخزينة كانت تفرغ بسرعة، اضطر هؤلاء الملوك لفرض ضرائب غير شرعية (المُكوس والمغارم) على العامة، تتجاوز الزكاة والخراج الشرعي.
- **فقدان الغطاء الديني :**أدى فرض هذه المكوس إلى اصطدام مباشر مع الفقهاء الذين أفتوا بعدم شرعيتها، مما نزع ما تبقى من "مشروعية أخلاقية" عن هؤلاء الحكام، وجعل العامة مستعدين للتخلي عنهم عند أول أزمة (وهو ما سيسهل لاحقاً دخول المرابطين وخلعهم بفتاوى شرعية).
- **التحليل الأكاديمي :**يرى المؤرخ **محمد عبد الله عنان** أن افتقاد القاعدة الشعبية كان المسمار الأخير في نعش الطوائف:

"لم تقم دول الطوائف على أساس من الشرعية أو رضا الأمة، بل قامت على أساس الغلبة والقهر. ولما أرهق ملوكها رعاياهم بالمغارم الثقيلة لإرضاء الجشع النصراني، سقطت هيبتهم تماماً في نفوس الشعب، وأصبح الأندلسيون ينتظرون المنقذ، سواء جاء من الشمال أو من عبر البحر" (3).

الهوامش :

(1)أبو العباس أحمد بن عذاري المراكشي، *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*، تحقيق ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، ج 3 (بيروت: دار الثقافة، 1983)، 198-199.

(2)أحمد بن محمد المقري التلمساني، *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب*، تحقيق إحسان عباس، ج 1 (بيروت: دار صادر، 1968)، 122.

(3)محمد عبد الله عنان، *دولة الإسلام في الأندلس: عصر دول الطوائف منذ بدايته حتى الفتح المرابطي*، ج 2 (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1997)، 412.

(4)ديفيد واسرستين(David Wasserstein) ، *انحطاط وسقوط ملوك الطوائف* (The Rise and Fall of the Party-Kings)، ترجمة عبد المجيد نعنعي (بيروت: دار النهضة العربية، 1990)، 145-147.

المحور الثالث: الجيوبوليتيك الانتحاري (نظام الپارياس، الاستنزاف، وسقوط طليطلة)

يمثل عصر الطوائف أول **"انقلاب جذري في ميزان القوى الاستراتيجي "**في شبه الجزيرة الإيبيرية منذ الفتح الإسلامي. فبينما كانت الأندلس تتشظى إلى دويلات متناحرة، كانت الممالك المسيحية في الشمال (قشتالة، ليون، أراغون، ونافارا) تتجه نحو التكتل والوحدة، مستغلة الفراغ العسكري الذي خلّفه انهيار الخلافة.

لم تلجأ هذه الممالك المسيحية (وخاصة في عهد فرناندو الأول ثم ابنه ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون) إلى الاجتياح العسكري الشامل فوراً، بل تبنت استراتيجية أذكى وأشد فتكاً، تُعرف في التاريخ الاقتصادي والعسكري بـ **"نظام الپارياس.(Parias) "**

.1نظام الپارياس (الجزية العكسية The Reverse Tribute):

الـ "پارياس" هي ضريبة مالية (جزية) سنوية باهظة من الذهب الخالص، التزم ملوك الطوائف بدفعها لملوك الممالك المسيحية في الشمال.

- **الغطاء السياسي للپارياس :**لم تكن تُدفع كـ "استسلام" رسمي، بل غُلفت في شكل "معاهدات حماية .(Protection Money) "كان ملك الطائفة يدفع الذهب لملك قشتالة مقابل أمرين:
  1. حماية دويلته من الممالك المسيحية الأخرى.
  2. (وهو الأخطر) تأجير الفرسان المسيحيين لمساعدته في ضرب جاره المسلم (ملك الطائفة المجاورة).
- **النص المصدر (الوثيقة الأهم :(**يقدم لنا **الأمير عبد الله بن بلقين**)آخر ملوك غرناطة الزيريين) في مذكراته السياسية (*التبيان*) اعترافاً نادراً وصادماً حول العقلية الاستراتيجية المعطوبة لملوك الطوائف، مبرراً سبب دفعهم لهذه الجزية المهينة:

"ولم تكن طاعتهم [أي ملوك الطوائف] لألفونسو عن محبة... ولكن لما رأوا من استيلاء الفتن على الأندلس، واشتغال كل واحد بمحاربة جاره... علم ألفونسو أنه لا أحد منهم ينصر صاحبه، فاستضعفهم، وفرض عليهم القطائع [الجزية]، فدفعوها صاغرين... وكان كل واحد منهم يقول: أنا أؤدي القطيعة وأستريح في بلدي، وأستعين به [بألفونسو] على عدوي" (1).

.2الاستنزاف المالي وسقوط الشرعية الداخلية:(The Economic Drain)

أدى نظام الپارياس إلى نتائج اقتصادية وسوسيولوجية كارثية دمرت الجبهة الداخلية لدويلات الطوائف:

- إفراغ الخزائن ونزيف الذهب الأندلسي نحو الشمال المسيحي، مما أدى إلى تقوية اقتصاد قشتالة العسكري على حساب إفقار الأندلس.
- **الاضطرار للمكوس (الضرائب غير الشرعية) :**لتسديد هذه المبالغ الفلكية لألفونسو، لجأ ملوك الطوائف إلى استنزاف رعاياهم بضرائب قاصمة (مكوس) لم ينزل بها الشرع.
- **غضبة الفقهاء :**أدى هذا العسف الضريبي إلى وقوف طبقة الفقهاء (قادة الرأي العام) ضد الملوك، فأفتوا ببطلان شرعيتهم وجواز الخروج عليهم، مما سحب البساط الشعبي من تحت أقدامهم بالكامل (2).

.3الزلزال الجيوسياسي: (سقوط طليطلة 478هـ / 1085م)

كانت خطة ألفونسو السادس (Alfonso VI) واضحة: استنزاف ملوك الطوائف مالياً وعسكرياً بضرب بعضهم ببعض، ثم الانقضاض على الجوهرة الاستراتيجية :**مدينة طليطلة**.

- **الأهمية الجيوسياسية لطليطلة :**لم تكن مجرد مدينة؛ بل كانت عاصمة الثغر الأوسط، والدرع الواقي للأندلس، وموقعها الجغرافي المرتفع في قلب شبه الجزيرة الإيبيرية يجعل من يسيطر عليها قادراً على تهديد قرطبة وإشبيلية وكل الجنوب الأندلسي. فضلاً عن رمزيتها التاريخية كعاصمة قديمة لمملكة القوط (Visigoths)قبل الفتح الإسلامي.
- **آلية السقوط :**استغل ألفونسو ضعف ملك طليطلة (القادر بن ذي النون) وثورة أهلها عليه. فضرب عليها حصاراً خانقاً دام سنوات، دمر خلاله زروعها ومحاصيلها. ولم يجرؤ أي ملك من ملوك الطوائف الكبار (كالمعتمد بن عباد في

إشبيلية أو المتوكل بن الأفطس في بطليوس) على التدخل لإنقاذها، خوفاً من ألفونسو وانشغالاً بصراعاتهم البينية.

- **النص المصدر :**يصف **ابن عذاري** مشهد السقوط المؤلم في شهر صفر من عام 478هـ، مستعرضاً تقاعس ملوك الطوائف:

"وفي سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، أخذ الأذفونش [ألفونسو السادس] مدينة طليطلة، وهي قاعدة الأندلس... وكان قد حاصرها سبع سنين، وقطع شجرها، وأهلك حرثها... وملوك الأندلس ينظرون إلى ذلك لا يغيرون، بل كل واحد منهم يصانعه [يراضيه بالمال] ويُداريه خوفاً على نفسه وبلده" (3).

.4الخلاصة :

يجب أن نفهم سقوط طليطلة ليس كنهاية لمعركة، بل كنهاية لـ **"عقيدة سياسية وعسكرية** ."أثبت هذا السقوط المدوّي إفلاس "النظام الطائفي" تماماً. وأدرك الأندلسيون (ملوكاً وعامة) أن ألفونسو لن يكتفي بطليطلة، وأن بقية العواصم (كقرطبة وإشبيلية) تنتظر دورها في السقوط.

هذا الإحساس بالرعب الوجودي (Existential Threat) هو الذي سيشكل الأرضية النفسية والسياسية للقرار التاريخي الأصعب: ابتلاع الكبرياء الأندلسي، والتوجه بطلب النجدة عبر مضيق جبل طارق، نحو قوة عسكرية شابة وصاعدة في الصحراء والمغرب :**دولة المرابطين**.

الهوامش :

(1)الأمير عبد الله بن بلقين، *مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة (المسمى كتاب التبيان)*، تحقيق إفاريست ليفي بروفنسال (القاهرة: دار المعارف، 1955)، 74.

(2)ديفيد واسرستين(David Wasserstein) ، *انحطاط وسقوط ملوك الطوائف* (The Rise and Fall of the Party-Kings)، ترجمة عبد المجيد نعنعي (بيروت: دار النهضة العربية، 1990)، 185-188.

(3)أبو العباس أحمد بن عذاري المراكشي، *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*، تحقيق ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، ج 3 (بيروت: دار الثقافة، 1983)، 285.

(4)محمد عبد الله عنان، *دولة الإسلام في الأندلس: عصر دول الطوائف منذ بدايته حتى الفتح المرابطي*، ج 2 (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1997)، 105-112.

المحور الرابع: "المفارقة الطائفية" (الازدهار الثقافي في قلب الانهيار السياسي)

من أعجب المفارقات في دراسة تاريخ الأندلس أن "عصر ملوك الطوائف"، الذي يمثل الحضيض السياسي والعسكري والجيوسياسي، هو ذاته الذي يمثل **"العصر الذهبي " (Golden Age)**للأدب، والشعر، والفلسفة، والعلوم البحتة.

يجب ألا يمر طالب الماستر على هذه المفارقة مرور الكرام، بل يجب تفكيكها سوسيولوجياً وسياسياً؛ فالازدهار الثقافي هنا لم يكن **"**صدفة**"**، بل كان أداة سياسية مقصودة ضمن صراع الطوائف.

.1رعاية العلم كأداة للمشروعية السياسية:

بما أن ملوك الطوائف افتقروا لـ "القوة الخشنة (Hard Power) "العسكرية، وافتقروا لـ "الشرعية الدينية"، فقد لجأوا إلى التنافس المحموم في مجال **"القوة الناعمة "**

- **لامركزية الثقافة :**بعد أن كانت قرطبة هي العاصمة الثقافية الوحيدة في عصر الخلافة، أدى تشظي الأندلس إلى تحول كل مدينة إقليمية (إشبيلية، بطليوس، سرقسطة، ألمرية) إلى **"**قرطبة مصغرة**"** تتنافس في اجتذاب العقول.

- **بلاطات الأمراء :**أصبح بلاط الملك يُقاس بشعرائه وعلمائه لا بجيوشه. أغدق الملوك الأموال الطائلة على الأدباء (كابن زيدون، وابن عمّار، وابن درّاج القسطلي) لمدحهم، وتخليد أمجادهم الوهمية، وهجاء الملوك المنافسين (وهو ما يشبه الآلة الإعلامية الحديثة).

.2ظاهرة "الملوك العُلماء:(Philosopher Kings) "

لم يكتفِ ملوك الطوائف برعاية العلم، بل انخرطوا فيه بأنفسهم، وأصبحوا من كبار رواده، هرباً من الفشل العسكري المتكرر أو تعويضاً عنه:

- **المعتمد بن عبّاد (ملك إشبيلية) :**يُعد من فحول شعراء الأندلس، وحوّل قصر (المبارك) إلى قبلة لأعظم شعراء عصره، وكانت زوجته (اعتماد الرميكية) شاعرة أيضاً.
- **المؤتمن بن هود (ملك سرقسطة :(**كان عالماً فذاً في الرياضيات والهندسة، وألف كتاباً مرجعياً ضخماً عُرف بـ*(كتاب الاستكمال)* الذي أذهل فلاسفة الغرب لاحقاً.
- **المظفر بن الأفطس (ملك بطليوس :(**ألف موسوعة ضخمة في الأدب والتاريخ سُميت بـ*(المظفري)* تقع في خمسين مجلداً.

.3النص المصدر (تشخيص المفارقة):

التقط الأديب والمؤرخ **ابن بسام الشنتريني** (ت 542هـ) هذه المفارقة الصارخة، وصاغها في مقدمة موسوعته الرائعة *(الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة)*، مبيناً كيف طغى نور الأدب على ظلام السياسة:

"وكان هذا الأوان [عصر الطوائف]، على ما كان فيه من اختلاف الكلمة، وتشتت الأهواء، وتنازع الآراء... أزهى أوقات الأندلس أدباً، وأكثرها عِلماً وعُلماء... فقد

تبارى ملوكها في إكرام الوافدين، ورفع أقدار المجيدين، حتى استنبطوا من كل حجر أصمَّ ينبوعاً للبيان" (1).

خامساً: الخاتمة العامة للمحاضرة:

ختاماً لهذه المحاضرة المفصلية، يمكننا تقرير حقيقة تاريخية وجيوسياسية قاطعة" :**إن عصر ملوك الطوائف الأولى كان بمثابة انتحار جماعي بطيء للأندلس."**

لقد استعرضنا كيف مزقت العصبيات العسكرية (البربر والصقالبة والعرب) جسد الخلافة الأموية، لتحوله إلى دويلات هشة تفتقر لأدنى مقومات "الشرعية السياسية". وبدلاً من أن توحدها التهديدات الخارجية، ابتلع ملوكها كبرياءهم وانخرطوا في "جيوبوليتيك انتحاري"، متمثلاً في نظام (الپارياس) الذي استنزف أموال الأندلسيين لتمويل الآلة العسكرية المسيحية الصاعدة.

إن سقوط مدينة "طليطلة" العريقة سنة 478هـ (1085م) لم يكن مجرد سقوط جغرافي، بل كان انهياراً لـ "عقيدة الاستقواء بالعدو". لقد وضع هذا الزلزال الأندلسيين (ملوكاً وفقهاء وعامة) أمام حائط مسدود: إما الفناء تحت سنابك خيل ألفونسو السادس، وإما التماس النجاة من خارج الحدود.

وسط هذا الرعب الوجودي، تجلت صحوة الموت، وبرزت الحاجة الماسة إلى **"قوة رادعة جديدة** ."وهنا، ستتجه أنظار الأندلسيين صوب الصحراء الكبرى وبلاد المغرب، حيث كانت تتشكل قوة فتية وصارمة لم تتدنس بترف الطوائف :**دولة المرابطين** .وهذا بالضبط ما سيُشكل موضوع محاضرتنا القادمة، حيث سندرس كيف عبر يوسف بن تاشفين البحر، ليغير مسار التاريخ في "معركة الزلاقة."

الهوامش :

(1)أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، *الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة*، تحقيق إحسان عباس، ج 1، ق 1 (بيروت: دار الثقافة، 1997)، 12.

(2)إحسان عباس، *تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين*)عمان: دار الشروق، 1997)، 45-48.

(3)ديفيد واسرستين(David Wasserstein) ، *انحطاط وسقوط ملوك الطوائف* (The Rise and Fall of the Party-Kings)، ترجمة عبد المجيد نعنعي (بيروت: دار النهضة العربية، 1990)، 210-215.

💡**مقترح لنقاش تفاعلي لطلبة الماستر:(Seminar Prompt)**

لختام المحاضرة بعصف ذهني نقدي، اطرح هذا السؤال:

"عندما سقطت طليطلة، واشتد الخطر على الأندلس، واجه المعتمد بن عباد (ملك إشبيلية) معارضة من بعض الأمراء الذين حذروه من الاستنجاد بالمرابطين خشية أن يسلبوه ملكه، فرد عليهم بمقولته الخالدة: (رعي الجمال في صحراء المغرب، خير من رعي الخنازير في قشتالة .(كباحثين في التاريخ السياسي، هل تقرأون هذه المقولة كـ (صحوة ضمير ديني وقومي متأخرة) لدى المعتمد، أم أنها كانت مجرد (خضوع لضغط الرأي العام والفقهاء) الذين كانوا سيسقطونه حتماً إن لم يستنجد بالمرابطين؟"

القائمة البيبليوغرافية للمحاضرة (06): عصر ملوك الطوائف الأولى

تُعد هذه القائمة دليلاً مرجعياً لطلبة الماستر للتعمق في دراسة التعقيدات السياسية، العسكرية، والثقافية التي ميزت الأندلس في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي).

أولاً: المصادر الأولية(Primary Sources)

1. **ابن بسام الشنتريني، أبو الحسن علي (ت 542هـ)** .*الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة* .تحقيق إحسان عباس. 8 أجزاء. بيروت: دار الثقافة، 1997.

2. **ابن بلقين، الأمير عبد الله (آخر ملوك بني زيري .(***مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة (المسمى كتاب التبيان)* .تحقيق إفاريست ليفي بروفنسال. القاهرة: دار المعارف، 1955.

3. **ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي (ت 456هـ)** .*رسائل ابن حزم الأندلسي* . تحقيق إحسان عباس. 4 أجزاء. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1987.

4. **ابن عذاري المراكشي، أبو العباس أحمد (ت بعد 712هـ)** .*البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب* .تحقيق ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال. الجزء الثالث. بيروت: دار الثقافة، 1983.

5. **المقري التلمساني، أحمد بن محمد (ت 1041هـ .(***نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب* .تحقيق إحسان عباس. 8 أجزاء. بيروت: دار صادر، 1968.

ثانياً: المراجع العربية والمعربة(Secondary Sources)

6. **عنان، محمد عبد الله** .*دولة الإسلام في الأندلس: عصر دول الطوائف منذ بدايته حتى الفتح المرابطي* .الجزء الثاني. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1997.

7. **واسرستين، ديفيد .(David Wasserstein)** *انحطاط وسقوط ملوك الطوائف* (The Rise and Fall of the Party-Kings).ترجمة عبد المجيد نعنعي. بيروت: دار النهضة العربية، 1990.

8. **عباس، إحسان** .*تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين* .عمان: دار الشروق، 1997.

9. **مؤنس، حسين** .*معالم تاريخ المغرب والأندلس* .القاهرة: دار الرشاد، 2000.

10. **ليفي بروفنسال، إفاريست** .*تاريخ إسبانيا الإسلامية: دراسة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية* .ترجمة علي عبد الرؤوف وعلي محمد سالم. الجزء الثالث. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2000.

11. **العبادي، أحمد مختار** .*في تاريخ المغرب والأندلس* .الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1999.

ثالثاً: مراجع أجنبية متخصصة:

12. **Guichard, Pierre.** *Al-Andalus, 711-1492: Une histoire de l'Espagne musulmane*. Paris: Hachette Littératures, 2000.

13. **Kennedy, Hugh.** *Muslim Spain and Portugal: A Political History of al-Andalus*. London: Routledge, 1996..

14. **Wasserstein, David.** *The Caliphate in the West: An Islamic Political Institution in the Iberian Peninsula*. Oxford: Clarendon Press, 1993.